العرب
الخميس 2020/08/20
السنة 43 العدد 11795

# الإقامة في مكان لا تجعلك تنتمي إليه

## ألبير ممي وألبير كامو كلاهما احتقر أهل البلد الذي نشأ فيه

لكل لغة مرجعيتها الفكرية والثقافية والحضارية بوجه عام، ولكن أغلب الكتاب بلغات ثانية يأتون بثقافات وعناصر حضارية من أصولهم إلى اللغة الجديدة، فيؤثرون فيها بقدر تأثيرها فيهم. من ناحية أخرى إن كان نسب الكاتب إلى لغة بحضارتها وثقافتها أمرا صعبا، فإن نسب الكاتب إلى جغرافيا وبلد بعينه أمر أصعب.

أبو بكر العيادي
كاتب تونسي

عادة ما يُنسب هذا الكاتب أو ذاك إلى بلد لمجرّد أنه ولد فيه أو أقام على أديمه ردحا من الزمن، ولو أمعنّا النظر لألفينا أن ما يكتبه لا يعبّر عن انتمائه إلى البلد المعنيّ قدر ما يعكس جذوره الأصلية، أو انتماءه العقدي، أو الثقافة التي نشأ عليها، والتي تجعله ينظر إلى الأشياء من زاوية تخالف رؤية ابن البلد الأصيل.

يحضرنا في هذا المقام مثالان. الأول هو الكاتب الفرنسي من أصل تونسي ألبير ممّي (1920 – 2020) والثاني هو الكاتب والمفكر الفرنسي المولود في الجزائر ألبير كامو (1913 – 1960).

### كاتبان خارج المكان

رأى ألبير ممّي النور في أحد أحياء تونس العاصمة، وتعلم فيها قبل أن يغادرها نهائيا فجر الاستقلال ويقيم بقية حياته في باريس. هذا الكاتب الذي أطنب بعضهم في وصفه بابن تونس عند وفاته، كان يضيق بتونس وأهلها ولغتها، ولا يرجو إلا مغادرتها حين تسنح له الفرصة، وهو الذي أكد مرارا في يومياته على استحالة أن يجد له مكانا في هذا البلد الذي تخلص حديثا من الاستعمار، إذ كتب يقول "–1 ينبغي مساعدة التونسيين لأن قضيّتهم عادلة. –2 ينبغي الرحيل لأن هذه القضية ليست قضيّتي".

> ألبير ممي يعرّف نفسه كيهودي يساري بثقافة فرنسية أقرب إلى روسو ودو فينيي من أي كاتب عربي

فكيف يدير لها الظهر إذن إن كانت عادلة؟ لقد غادرها وهو شاب (36 سنة) واستقر بفرنسا حتى وفاته، ولم يعد ينظر إليها إلا كبلد رأى فيه النور، وعانى فيه الاستعمار، فلا بقاء فيه في رأيه إلا للمسلمين.

فقد اعترض على الفصل الأول من دستور 1959 الذي ينص على أن تونس بلد عربي دينه الإسلام، إذ رأى فيه استبعادا للأقليات اليهودية والمسيحية، ومضى يؤلف دراسات عن مكانة الآخر في المجتمع التونسي، وهو يحس في قرارة نفسه أنه لم يعد ينتمي إليه، ويعرّف نفسه بكونه يهوديًا يساريًا ذا ثقافة فرنسية، أقرب إلى روسو ودو فينيي من أي كاتب عربي، مثلما يعترض على تعريب التعليم، وهو الذي لم يلتحق أبدا بالمدرسة العمومية.

أما ألبير كامو، الذي تغنى بالجزائر وشمسها وبحرها وأشجارها، وأهمل أهلها، لأنه كان كالسائح الأوروبي لا يهمّه إلا ما يشبع رغبته في مناخ لا يجده في بلده الأصلي. فهو عندما يقول "لن أستطيع العيش خارج مدينة الجزائر. أبدا. سوف أسافر لأني أريد أن أعرف العالم، ولكني على يقين بأني في مكان غيرها سأكون دائما في منفى".

إنه لا يختلف في الواقع عن "الأقدام السوداء"، أي المستوطنين الأوروبيين الذين حلّوا بالجزائر أو ولدوا فيها إبان الاحتلال الفرنسي (1830 – 1962)، هم أيضا ما انفكّوا يعبرون عن تعلّقهم بهذا البلد، ولا يزال الباقون منهم يحنّون إليه كما يحنّ أيّ كان إلى مسقط رأسه، دون أن يعني ذلك انتماءهم للمجتمع الجزائري أو حبّا لمواطنيه.

صحيح أن كامو تغنّى بها ولكن كأرض، كمستوطنة، كموطن ذكريات طفولته وشبابه، دون أن يهتم بمن فيها، ممن ذاقوا الثكل والويل، وحرموا من خيرات أرضهم طيلة قرن وثلث القرن. فهو كسائر بني جلدته، من عوامّ ومثقفين إلا ما ندر، لم يكن يتخيل أن الجزائر قد تستقل عن فرنسا، إذ كان يعرف مسبقا ما سوف يفقد باستقلالها.

صحيح أيضا أنه لم يسئ بكلمة إلى الشعب الجزائري، ولكنه لم يذكره أيضا، بل تجاهله وكأنه لم يوجد على تلك الأرض التي عشقها، ففي روايتيه "الغريب" و"الطاعون" اللتين دارت أحداثهما في الجزائر العاصمة ووهران، لا ذكر إلا لعربي مجهول، غائم الملامح، لا اسم له ولا صفات، لا يعرف القارئ عنه إلا أنه كان ضحية البطل مورسو. صحيح كذلك أنه أبدى في مقالاته الصحافية استياءه من حياة البؤس التي يحياها البلَديون INDIGÈNES التي تضع سكان البلد الأصليين في موضع التابع، ولا نعتقد أنه كان يجهل ذلك النعت الذي ينضح بتمييز عنصري ودينى منذ أن فرضه قانون 1881، ولكن لا وجود لأولئك البلَديين في أعماله الإبداعية والفكرية.

### العربي صفة للتحقير

يقول ياسمينة خضراء "كامو لخّص الجزائريّين في عبارة واحدة: العربي. وفي هذا العربي شيء من التحقير، شيء لا يُحتمل رأى فيه الجزائريون نوعا من الإلغاء. فالعربي اسم شامل، هو الخرج الذي كان يضع فيه كل من ليسوا أوروبيين. كان يشذّب فلا يبقي إلا من له اعتبار في نظره، ولم يكن للعربي في نظره اعتبار".

ويخطئ من عزا ذلك إلى وجود حاجز حقيقي بين الجزائريين والفرنسيين، وغياب جسر يربط بينهم، فلا يعقل أن يبقى كل طرف على حِدة طيلة مئة واثنيتن وثلاثين سنة، ولا يصدق عاقل أن يدار بلد في حجم الجزائر من وراء أسوار قلعة، ولكنه أثر أن يدين دخول دبابات خروتشيف إلى العاصمة المجرية على أن يدين المجازر التي اقترفها بنو جلدته.

وفي كلتا الحالتين، نجد أنفسنا أمام كاتبين لا ينظران إلى أهالي المنطقة كمواطنين يشتركان معهم في الانتماء والمصير، ولم يعبّرا عن همومهم وتطلعاتهم، لأن انتماءهما الأساس لثقافة أخرى.

يقول أحمد ممّو في افتتاحية العدد الجديد من مجلة "قصص": الآخرون، وإن شاركوا شعوب الضفة الجنوبية للمتوسط في وجودهم لفترة ما من تاريخ الأقلية التي ينتمون إليها، إلا أنهم كثيرا ما يعكسون في تفكيرهم انتماءهم إلى ثقافة أخرى وتطلعا إلى مصير مختلف.

ويضيف "وجدت في تلك النصوص كاتبا له بعد المتوسطي، ينظر إلى الدنيا بعيني إنسان أوروبي خبر الحياة على الضفة الجنوبية للمتوسط وامتلأ بشمسها، وهو يجد في الحياة على هذه الأرض الجنوبية ما لا يتوفّر له من راحة نفسية وتواصل اجتماعي بأوروبا. وما أثار انتباهي أنه لم يستطع أن ينظر إلى أبناء الضفة الجنوبية كمواطنين يشترك معهم في الانتماء والمصير. وهذه الفكرة ترسخت لدي أكثر من خلال كتابات أدباء آخرين تشدهم إلى هذه الأرض صدفة المنبت ويبعدهم عنها مسار حياتهم في ما بعد".

ويتابع ممو "ذلك ما كان شعوري وأنا أنتهي من قراءة روايتين عن شعور بالانتماء إلى 'تمثال الملح' لألبير ممي و'كريستال' لجلبار نقاش، وكلتاهما تعبر عن هذه البلاد الجنوبية التي نشترك معهما في وجودنا عليها، لكن المرجعية الفكرية والثقافية لكل منهما تتعلق بثقافة وتاريخ الضفة الأخرى. تقوم بالأساس على التعلق، فمهما كان التعاطف مع الكتاب الذين صبغتهم الثقافة الفرنسية ممن تحدثوا عن هذه التربة وأشادوا بشمسها وطيبة الحياة فيها، إلا أنهم في النهاية، مختلفون عن أبناء البلاد ممن يحملون في ذاكرتهم تاريخ المجموعة الغالبة في شعبها ويعبرون عن ذلك بلغته".

ويخلص إلى أن الآخرين وإن شاركوا شعوب الضفة الجنوبية للمتوسط في وجودهم لفترة ما من تاريخ الأقلية التي ينتمون إليها، إلا أنهم كثيرا ما يعكسون في تفكيرهم انتماءهم إلى ثقافة أخرى وتطلعا إلى مصير مختلف.

ألبير كامو وألبير ممي أهملا أهل تونس والجزائر

# رفيق سلوم أديب سوري أشعل ثورة ضد العثمانيين

دمشق – لا تزال قصيدة الشاعر السوري رفيق رزق سلوم التي نظمها أمام مشانق شهداء 6 مايو تستصرخ الضمائر الحية وتستنهض الهمم وتحث على المقاومة، فكأن هذه القصيدة التي كتبها قبل أكثر من 100 عام تصلح لزماننا وتنطق بلساننا.

وتوثيقا لسيرة حياة هذا المناضل والشاعر قامت مؤسسة تاريخ دمشق بإعداد دراسة لموقع ويكيبيديا لينشرها على صفحاته بناء على الاتفاق الموقع بين الطرفين في يونيو الماضي القاضي بأن تزود المؤسسة الموقع بسير حياة 100 شخصية سورية موثقة ومدققة.

الشاعر الذي خاطب أبناء وطنه وأمته قبيل إعدامه داعيا إياهم إلى الثأر من المحتل العثماني عندما قال "لا العرب أهلي ولا سوريا داري إن لم تهبوا لأخذ الحق والثأر".

ولد الشاعر في مدينة حمص سنة 1891 وتعلم في مدارسها وبينما كانت أسرته تتوسم فيه أن يصبح رجل دين خلع ثوب الرهبنة مبكرا واتجه إلى بيروت للتعلم في الكلية السورية البروتيستانتية "الجامعة الأميركية في بيروت" وكتب وهو لا يزال طالبا فيها أولى رواياته "أمراض العصر الحديث".

وبعد أن أنهى دراسته في بيروت سافر إلى إسطنبول لدراسة الحقوق وهناك راسل كبرى الصحف والمجلات العربية مثل "المقتطف والمقتبس والمفيد ومجلة لسان العرب" التي كان يصدرها النادي الأدبي في إسطنبول وعمل محررا في جريدة الحضارة التي يصدرها عن الشيخ عبدالحميد الزهراوي. في هذه الفترة من حياته وضع كتابا جامعا في الاقتصاد بعنوان "حياة البلاد في علم الاقتصاد" ولما أنهى دراسة الحقوق كان قد أجاد اللغات الروسية واليونانية والتركية.

كان لسلوم ولع وهواية بالموسيقى فأتقن العزف على آلات القانون والعود والكمان والبيانو، كما كان من أشد المساهمين في إنشاء النادي الأدبي الذي كان يهدف إلى ائتلاف العرب وصيانة حقوقهم واستقلال بلادهم.

في عام 1914 ساقت سلطات الاحتلال العثماني سلوم إلى الخدمة مع قواتها المشاركة في الحرب العالمية الأولى، وهنالك تسنى له الاتصال والتنسيق مع الفئات المعارضة لهذا الاحتلال وكان بمثابة ضابط الاتصال بينها وبين ما تجسده من آمال الشعوب الرابضة تحت نير الاحتلال.

وفي عام 1915 اعتقل سلوم بعد أن وشي به وبنشاطاته للاحتلال العثماني ونقل إلى الديوان الحربي حيث حكم عليه بالإعدام شنقا، ووقتها بعث برسالة مؤثرة إلى والدته وصف فيها ما ذاقه من تعذيب خلال مدة توقيفه واستجوابه، وذكر أسماء الأشخاص الذين وشوا به وسامحهم.

وفي صبيحة يوم السادس من مايو نفذ حكم الإعدام بسلوم وهو لا يزال شابا في الخامسة والعشرين من العمر، وكان معه عدد من الأحرار مثل شفيق مؤيد العظم ورشدي الشمعة وشكري العسلي وأستاذه عبدالحميد الزهراوي، حيث وصفت مذكرات ضابط في جيش الاحتلال العثماني اسمه فؤاد أردن موقف سلوم أمام الموت وكيف سار له بخطوات ثابتة سريعة وحيا جثمان الشهيد الزهراوي واصفا إياه بأب الحرية وارتجل قصيدته التي يدعو فيها السوريين والعرب للثأر لشهداء 6 مايو وللتحرر من نير الاحتلال.

وفي الوصية التي تركها سلوم دليل بالغ على مشاعره وحس انتمائه للوطن وللأمة حيث أوصى أن تكتب على قبره أبيات من قصيدة الشاعر المقنع الكندي الشهيرة "إن الذي بيني وبين بني أبي" لتعبر عن إيمانه بسوريته وبعروبته ودفاعه عن أبناء جلدته حتى الذين خانوه وسلموه للموت.

أرادوه رجل دين فخلد اسمه كأديب

# ملتقى «أقرأ الإثرائي» ورشات تحفز السعوديين على القراءة

الدمام (السعودية) – أطلق مركز الملك عبدالعزيز الثقافي العالمي (إثراء) ملتقى "أقرأ الإثرائي" بنسخته السادسة، الذي يهدف إلى تقديم تجربة نوعية للمشاركين من خلال برنامج معد خصيصا لهم، ويجمع بين المحتوى الثقافي المميز والبيئة المحفزة على تطوير المهارات الشخصية وجوانب الإبداع، ويركز على خمسة مسارات ثقافية وهي الفنّ والفكر والأدب والعلوم واللغة.

وتتضمن النسخة السادسة من البرنامج الوطني للقراءة "أقرأ" استحداث فكرة إقامة ملتقيين إثرائيين، حيث خصص الملتقى الإثرائي الأول للمرحلة الابتدائية العليا والمتوسطة، فيما خصص الملتقى الإثرائي الثاني للمرحلة الثانوية والجامعية، تعزيزا لتجربة المشاركين وتحقيق الاستفادة لهم بما يتناسب مع أعمارهم.

كما يتضمن الملتقى الإثرائي الأول والثاني باقة متنوعة من البرامج وورش العمل والندوات، ورحلة مع "إثراء" للمشاركين، حيث اختيرت سمات يومية على شكل أسئلة تحمل رمزية مجازية تدعو للتأمل وتدفع القارئ إلى استكشافها دون أن تكون مستعصية على الفهم.

ويهدف البرنامج إلى تحفيز القرّاء، وتسليط الضوء على ثقافة القراءة بين أوساط المجتمع، من خلال تقديم برامج ثقافية نوعية تسهم في زيادة الوعي، وغرس مفاهيم الاطلاع والإنتاج الثقافي المكتوب باللغة العربية، وقد شهد البرنامج على مدار خمس سنوات إقبالا كبيرا من قبل الشباب والفتيات، حيث شارك فيه أكثر من 50 ألف مشارك ومشاركة، وقُدّم خلاله أكثر من 1000 ساعة تدريبية، واستضاف أكثر من 100 كاتب ومثقف من مختلف دول العالم.

البرنامج يهدف إلى تحفيز القراء وتسليط الضوء على ثقافة القراءة بتقديم برامج ثقافية نوعية